المحاضرة الخامسة في مادة القياس والاشتقاق:

الاشـــتـــقـــاق: مفهومه وأنواعه

أ/ قطاف

أولا-مفهوم الاشتقاق

اللغة تعبير عن الواقع. لكن هل الواقع شيء ثابت أم متغير؟

اللغة مرآة للواقع. والواقع ليس ثابتا، وإنما متغير. فمعنى هذا اللغة لا بدّ أن تكون متغيرة. لكن كيف تتغير اللغة؟

إنّ أهم هذه التغيرات أنها تولّد كلمات لما يستجدّ في الواقع. وتنمو الثروة اللغوية بطريقين معروفين:

- الاشتقاق: نمو لألفاظ اللغة من داخلها.
- الاقتراض: نمو لألفاظ اللغة من خارجها.

والاشتقاق مبحث صرفي، لكن يجري الحديث عنه في كتب اللغة، لأنه من خصائص العربية، فقد وقف علماء العربية على أنّ العربية لغة اشتقاقية. ومعروف أنّ اللغة مفردات تحكمها مجموعة أنظمة. وهذه الأنظمة لها أربعة جوانب: جانب صوتي، جانب صرفي، جانب نحوي، جانب دلالي. واللغة العربية تمتاز عن غيرها من اللغات بأنها في الجانب الصرفي لغة اشتقاقية. فما الاشتقاق بعد هذا؟

تقول العرب شقّ الصبح إذا طلع، وشقّ النبت إذا خرج من الأرض. ومنه فعل اشتقّ الشيء، على وزن افتعل، بمعنى أخذ شِقّه، واشتقّ الكلمة من الكلمة أي أخرجها منها.

والاشتقاق هو أخذ صيغة من صيغة أخرى مع اتفاقهما معنى، ليدل بالثانية على معنى الأصل، بزيادة مفيدة، لأجلها اختلفا حروفا أو هيئة، كضارب من ضرب.

يقول ابن فارس في هذا الباب: (أجمع أهل اللغة –إلا من شذّ منهم–أنّ للغة العرب قياسا، وأنّ العرب تشتق بعض الكلام من بعض، وأنّ اسم الجن من الاجتنان، وأنّ الجيم والنون تدلان أبدا على الستر. تقول العرب للدرع جنة، وأجنّه اليل، وهذا جنين أي هو في بطن أمه أو مقبور، وأنّ الإنسان الظهور. يقولون آنست الشيء أبصرته. وعلى هذا سائر كلام العرب).

ابن فارس هنا يؤمن بالتوقيف في اللغة، بما في ذلك الاشتقاق. وأصل المشتقات عنده المصدر لقوله "الجن من الاجتنان". وقولهم الغراب من الاغتراب، والجراد من الجرد. وهو إذن مع البصريين في مخالفتهم الكوفيين، وذلك في إرجاعهم أصل الاشتقاق إلى الفعل.

وقد طال الخلاف أيضا طبيعة الكلم التي يصحّ منها الاشتقاق، في مقابل ما لا يصح منه الاشتقاق. فالمتقدمون اعتبروا بعض الكلم مشتق وبعضه غير مشتق، والمتأخرون قالوا كل الكلم مشتق. وإلى الرأي الأخير مال "ابن دحية" في كتابه (الارتشاف)، إذ وسع مفهوم الاشتقاق توسيعا لم يترك فيه سوى الجوهر لقلة الاشتقاق منه، كاستحجر الطين، واستنوق الجمل. فالأصل في الاشتقاق عنده أن يكون من المصادر، وأصدق ما يكون من الأفعال المزيدة، والصفات منها، وأسماء المصادر والزمان والمكان، ويغلب في العَلم، ويقلّ في أسماء الأجناس.

والاشتقاق علمٌ مشترك بين الصرفيين واللغويين، الذين احتاجوا إليه لما قاموا بوضع المعاجم الأولى، وكان لا بد من اختيار طريقة عمليةٍ لتصنيف مواد اللغة، إما بالاعتماد على مخارج الحروف (ككتاب العين للفراهيدي)، وإما على أصول الكلمات (كمقاييس اللغة لابن فارس).

وقد ألف في الاشتقاق كل من: الأصمعي (ت216 هـ)، قطرب (ت206 هـ)، أبو الحسن الأخفش (ت215 هـ)، أبو نصر الباهلي(ت231هـ)، المفضل بن سلمة(ت290هـ)، المبرد(ت285هـ)، أبو اسحق الزّجاج(ت311هـ)، أبو الحسن الرُماني (ت384هـ)، ابن خالويه (ت370 هـ)، والنحاس (ت338 هـ).

إذن عناية العرب بالاشتقاق قضية قديمة، فهذا أبو عمرو بن العلاء سئل عن اشتقاق الخيل...فقال من (الخيلاء التي في الخيل والعُجب. ألا تراها تمشي العِرضنة خيلاءً وتكبرا؟). إذن، سميت الخيل خيلا لأن في مشيها خيلاء.

هذا في القديم، أما في العصر الحديث فإنّ علماء العربية يقسمون اللغات البشرية ثلاثة أقسام: لغات هندية أوروبية– لغات سامية/حامية–لغات طورانية.

فاللغات السامية بالعموم لغات اشتقاقية، بمعنى أن كلماتها تتولد من أصلٍ تمتزج أصواته وأصوات الصيغة، فكأنّ الأصل يُذاب ثم يسكب في قوالب تأخذ شكلها.

أما اللغات الأخرى فتكون وفق جذر ثابت تضاف إليه السوابق واللواحق والأحشاء.

يمكن القول إن الجذر في اللغة العربية مادة زئبقية يسكب في قالب فيأخذ شكله، أما في اللغات الأخرى، فالجذر مادة جامدة لا تتغير، إنما تؤخذ الألفاظ منه عن طريق الزيادات، تسبق الكلمة أو تلحق بها.

وأشهر من ألف في الاشتقاق من المحدثين: عبد الله أمين في كتابه "الاشتقاق"، الصادر عام 1956. وكذا فؤاد حنا ترزي في كتابه "الاشتقاق" أيضا، الصادر عام 1968.

ثانيا-أنواع الاشتقاق

1-الاشتقاق الأصغر:

وهو المشهور من أنواع الاشتقاق لكثرة وروده. وطريقة معرفته حسب ما يقول السيوطي: (تقليب تصاريف الكلمة حتى يرجع منها إلى صيغة هي أصل الصيغ دلالة اطراد أو حروفا غالبا، كضَرْب، فإنه دال على مطلق الضرب فقط، أما ضارب ومضروب، ويضرب وأضرب، فكلها أكثر دلالة وأكثر حروفا).

والذي يظهر من قول السيوطي أنّ الاشتقاق الأصغر هو ما لم تغير التصاريف شيئا من مادته الأصلية التي تحافظ في جميع مشتقاتها على حروفها الأصلية، وعلى ترتيبها الأصلي، بالإضافة إل المعنى المشترك بينها.

مثلا: مادة (عرف). حين ندخل عليها حروف الزيادة المجموعة في قولنا (سألتمونيها)، فإننا نحصل على مجموعة ألفاظ، هي: أعرف، تعارف، اعترف، استعرف، عارف، معروف، تعريف، عرفان، معرفة...إلخ. وكلها تحمل المادة الأصلية (عرف) في صيغها، لأنّ الزوائد الداخلة عليها في الأول والآخر لا تؤثر في هيئة تركيب الأصل، ولا في معناه العام، وإنما تساهم في تحديد أبنية المشتقات، وفي تخصيص المعاني الجزئية الناشئة من المعنى الأصلي.

إذن، هذا الذي ذكرناه يمكن تلخيصه فيما **اتحدت حروفه الأصلية وهيئة التركيب**.

وللاشتقاق الأصغر الدور الحاسم في توسيع اللغة العربية، وتوليد القسم الكبير من مفرداتها، فهو حقا نوع من تصريف المصادر ذات المعاني المطلقة، وتحويلها إلى صور مختلفة لتحيينها استعمالا ودلالة.

2-الاشتقاق الكبير:

ابتكره ابن جني. يعرفه بقوله: (هو أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثية فتعقدَ عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف كل واحد منها عليه، وإن تَباعدَ شيء من ذلك عنه رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل إليه).

وبخلاف الاشتقاق الأصغر الذي لا تبديل أبدا في ترتيب حروفه الثلاثة الأصلية بين المادة الأصلية والكلمات المشتقة منها، فإنّ الاشتقاق الأكبر يتم بتغيير مواقع الحروف مرات عديدة

وقد قدّم ابن جني أمثلة في الاشتقاق الأكبر منها:

كلم، كمل، مكل، ملك، لكم، لمك. في معنى القوة والشدة

قسو، قوس، وسق، سوق، وقس، سقو (مهمل). في معنى القوة والاجتماع

سمل، سلم، مسل، ملس، لمس، لسم (مهمل). في معنى الاصحاب والملاينة.

والاشتقاق الأكبر أقل استعمالا في العربية من غيره. كما أن المعنى الجامع بين التقاليب ليس دائما واضحا. لذلك نجد كثيرا من علماء العربية يفضلون الاشتقاق الأصغر عليه.

لدينا كذلك ضرب: كم احتمال لترتيبها؟ الجواب: 6

ضرب–ضبر–برض–بضر–ربض–رضب

فإذا استطعتَ جمع كل هذه التقليبات تحت معنى واحد فقد حقّقتَ ما يسمى بالاشتقاق الكبير.

ويدخل هذا النوع ضمن ما **اتحدث حروفه الأصلية دون هيئة التركيب**.

3–الاشتقاق الأكبر:

وهو أن تتقاربا في الأحرف الأصلية مخرجا وصفة، مثل هزّ وأزَّ. فهما لفظان غير متباعدات نطقا. يختلفان في حرف واحد فقط: الهاء والهمزة. وكلاهما من حروف الحلق. وقد اتفق الصوتان معنى، وتقاربا لفظا.

وقيلَ إن هذا النوع ليس من الاشتقاق، بل شيء من تطور اللغة، سَلَكَ سبيل الإبدال، أي بإبدال بعض الحروف ببعض.

وهو على نوعين كما سبق الذكر:

تقارب الحروف في المخارج: ومثاله:

- أرقت الماء وهرقته.
- ضبحت الخيل وضبعت.
- كشط الجلد وقشطه.
- أسود حالك وحانك.
- فلان خامل الذِكر وخامن.
- هديل الحمام وهديره.
- عنوان الكتاب وعلوانه.
- هتل المطر وهطل.
- رأيته من كثب وكثم.
- كبحتُ الدابة وكمحتها.
- امتقع لونه وانتقع.

تقارب الحروف لتقارب الصفات:

- زهاء مئة وزهاق مئة: الزاي والقاف تجمعها الشدة.
- فاضت نفسه وفاظت.
- قبضتُ قبضة وقبضت قبصة: الصاد والضاد يجمعهما الاستعلاء والاطباق.
- سم زعاف وسم زعاق.
- ساخت الأرض وساقت.
- حَمِس الشر وحمش.
- نثر الحَب ونشر.

وأحيانا يكون الاشتقاق الأكبر بغير هذا. مثلا: الزحاليق: الزُّحلوقة والزُّحلوفة. فالتقارب هنا لا بالمخرج ولا بالصفة، بل كتابةَ. ومثله أيضا: نحيل ونحيف، شاكهه وشاكله، صرير البكرة وصريفها، رسى ورسب، محى ومحق، ردّ وردع، رصّ ورصف، قَطّ وقطف.

4-الاشتقاق الكُبّار:

وهو اشتقاق كلمة من كلمتين أو أكثر. ويسمى النحت. ومن ذلك: سبحل من سبحان الله، وحوقل من لا حول ولا قوة إلا بالله، ومشألة من ما شاء الله، وطلبق من أطال الله بقاءك، ودمعز من أدام الله عزك. ولنا عودة لهذا النوع في درس لاحق.

رابعا-قيمة الاشتقاق

من فوائد الاشتقاق أنه يُجلّي صلة القرابة والنسب بين كل مجموعة من الكلمات التي تشتركُ في ثلاثة أحرف مميزة، يقال لها المادة الأصلية، مثل مادة (ع ل م)، وما ينشأ منها من ألفاظ كعلم، وعلامة، ومعلم، وعالم، وعلم، ومتعلم، ومعلم، وإعلام، ومعلوم...إلخ.

وهو يتيح معرفة المشتبهات من المفردات بردها إلى أصولها الثلاثية، على شاكلة التقوى من وقي، والتراث من ورث، وتجاه من وجه، وسيّان من سوى...إلخ.

كما أنّ الاشتقاق يساعد كثيرا في ترتيب المعاجم بحسب موادها التي يقلّ عددها على عدد الألفاظ المشتقة منها. وفي ذلك تيسير لعمل المعجمي، واختصار لجهد المستعمل الذي لا يجد أي مشقة ولا عناء في الرجوع إلى مادة معينة تجمع في ذاتها بذور المشتقات المتاحة أو المحتملة.

وأكثر من ذلك، فإنّ الاشتقاق يعني توليد من كلمة واحدة عشرات الكلمات والمعاني، فهو أحسن وسيلة لإنماء اللغة بخلق مفردات جديدة طورا، وبتحيين المشتقات عند استعمالها فيما يقتضيه الحال والتعبير اللساني طورا آخر.

والاشتقاق هو النسغ الضروري لحياة اللغة ومحركها نحو المزيد من التطور والرقي، ولولاه لجمدت اللغة وفقدت حركيتها التي بدونها لن تكون الكلمات سوى جثث هامدة.

على أنّ الاشتقاقيين الأصوليين لا يقبلون البتة الاشتقاق من غير لغة العرب، حتى لا يختلط الدخيل بالأصيل. يقول ابن سراج في رسالته في الاشتقاق: (مما ينبغي أن يُحذرَ كل الحذر أن يُشتقَّ من لغة العرب شيء من لغة العجم...فيكون بمنزلة من ادّعى أن الطير ولد الحوت).

ولهذا بقيت الألفاظ الدخيلة على العربية كالصراط والفردوس والكوب والسندس والاستبرق والسرداب مجرد أسماء لمسميات لا مواد لها، ولا هي قابلة للاشتقاق.

❖تنبيهات:

- للاشتقاق معنى عملي وآخر نظري. فأما العملي فنعني به أخذ كلمة من أخرى تتفقان لفظا ومعنى. وأما النظري فردُّ كلمة إلى أخرى تتفقان لفظا ومعنى. وقد اختلف البصريون والكوفيون في اشتقاق الاسم، فالبصريون جعلوه من فعل (سَـمَوَ)، وأما الكوفيون فجعلوه من فعل (وَسَمَ). وهذا اشتقاق بالمعنى النظري، لأنهم اختلفوا في ردّ الكلمة، أي اختلفوا في أصلها.
- اختلف البصريون والكوفيون في أصل الاشتقاق. من الذي أُخذَ من الآخر؟ هل أُخِذ الفعل من المصدر أم أُخِذَ المصدر من الفعل؟ الكوفيون يذهبون إلى أن الفعل الماضي هو الأصل، وأنّ المصدر وغير المصدر كلها مشتق من الفعل الماضي. أما البصريون فيذهبون إلى العكس، ويقولون إنّ المصدر هو الذي تُؤخذ منه الأشياء. والحقيقة، نظر كل منهما إلى المسألة من جهة ما، فالبصريون نظروا إلى المسألة من جهة المعنى. ففي (قم-يقوم-قياما) نتساءل/ هل أخذنا قام من قيام؟ أم أخذنا قيام من قام؟ البصريون إذن يقولون أخذنا قام من قيام.
وحين نقول قام، يُفهم منها أمرين: الحدث والزمن. إذن هو معنى مركب. خلاف لو قلنا قيام، التي يُفهم منها الحدث لا غير. لعدم اقتران المصدر بزمن معين. وحسبهم: إذا كنت بين أمرين أحدهما مركب والأخر بسيط، فحتما ستجعل البسيط أصلا للمركب. إذن المصدر أصل عند البصريين لهذا الاعتبار.
- المشتقات في العربية عشرة: الفعل الماضي-الفعل المضارع-فعل الأمر-اسم الفاعل (واعد، ساعٍ، مُحسِن..)-اسم المفعول-الصفة المشبهة (اسم مشتق يدل على حدث ثابت في الموصوف، الذي هو اسم الفاعل، ثبوتا يلازمه، أي إنها تشبه اسم الفاعل في المعنى، لكنها تختلف عنه في أنها تدل على صيغة ثابتة ملازمة لفاعلها، مثل: أخضر، خضراء، أحول، حولاء، شبعان، شبعى، فطِن، فطِنة...)-اسم التفضيل-اسم الزمان (كقولنا: مارس مَغرِسُ الأشجار)-اسم المكان (معهد، ملعب)-اسم الآلة (مِعول، مصباح، مظلة، منشار، غسّالة...).

- العرب لم تشتق كل ما في رصيدها دُفعة واحدة، وإنما تنمو المشتقات وتكثر بحسب الحاجة إليها.
- لم تستق العرب من كل مادة جميع ما يُشتق منها. وهو ما يعني أنّ في المعجم العربي إمكانات كامنة. نستطيع استخراج المزيد منها.
- بالإمكان الاشتقاق من كلمات أعجمية. قالوا قديما: دَرهَمَتِ الخبزة، أي استدارت. اشتقت من درهم. وقالوا: رجل مُجرّز أي شرب الجارازون، وهو الخمر.
- قد يسمى الاشتقاق الصغير بالاشتقاق العام، ذلك أنه إذا أُطلق فهو المراد. أي عندما يُذكر الاشتقاق ينصرف الذهن إلى الاشتقاق الصغير.

مراجع هذه المحاضرة:

- زبير دراقي، محاضرات في فقه اللغة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992.
- عبد البديع النيرباني، محاضرة الاشتقاق في العربية، معهد مكة المكرمة للعلوم الشرعية.